العلاقات الأسرية

يتجلى الوجود الإنساني في تواصله بين أفراده بالعلاقات الإنسانية؛ وهي تلك العلاقات التي تربط بين بني البشر بدوائر قد تصغر لتصل إلى مستوى الأسرة، أو تكبر بتدرج مع اتساع رقعة المجتمع. وعلى اختلاف أنواع تلك العلاقات وأشكالها فإنها تدخل تحت تصنيفين اثنين:

الأول: هو العلاقات الواجبة والحتمية كعلاقة الآباء بالأبناء، والإخوة بالدم والقربى.

الثاني: هو العلاقات الخيارية، حيث تصنف ضمنها الصداقة، والشراكة في العمل، وعلاقة الجوار، وغيرها من العلاقات التي تسمح لنا باختيار شخوصها.

ومن المفترض أن تضفي الحقوق والواجبات على أي علاقة إنسانية مرجعية لطرفي العلاقة بهدف تنظيمها ورسم حدودها، إلا أن هذا الهامش من الحقوق والواجبات قد يكبر ويصغر ويتغير تبعاً لظروف عديدة. فهو يختلف باختلاف جغرافية العلاقات، وباختلاف المرجعية الدينية لها، كذلك فإن العادات والتقاليد لأي منطقة تؤدي دوراً مهماً في مقياس ذلك الهامش.

ففي الغرب مثلاً نرى أن علاقة الآباء بالأبناء والأبناء بالآباء قد تراجعت تراجعاً ملحوظاً في أغلب الحالات، وأصابها البرود والجفاء. كذلك علاقة الأخوة بالدم والقرابة، لكن بالمقابل نجد أن علاقة الشراكة في العمل على درجة عالية من الانضباط، سواء في الحقوق أم الواجبات؛ بسبب القوانين الصارمة التي تحكم تلك العلاقات، في الوقت الذي تغيب فيه علاقة الجوار تماماً في المفهوم الغربي.

فإذا انتقلنا جغرافياً إلى مجتمعاتنا فإننا نجد متانة شديدة في العلاقات

obeikandl.com

الإنسانية، سواء منها الواجبة أم الخيارية، إلا أن هذه المتانة عائمة في معظم الحالات ومبهمة الحدود، وتتأرجح فيها الحقوق والواجبات بين الشد والجذب.

ففي هذه العلاقات يوجد طرفان، ومن ثمَّ يوجد حق وواجب، فإذا طغى أحدهما على الآخر فسدت العلاقة من حيث لايدري أحد. ويستهلك الأفراد جهودهم في إصلاح النتائج متناسين السبب الذي أدى إلى فساد العلاقة.

علاقة الآباء والأبناء

إذا تناولنا مثلاً علاقة الآباء بالأبناء نجد أن كلمة البرّ هي محور تلك العلاقة وعمودها الفقري الذي يقيم أودها، لكننا نلاحظ أن معظم الآباء والأمهات يطالبون أحياناً ببر مطلق لاحدود له، بما في ذلك امتلاك حق تقرير مصير أبنائهم، وقد يتجاوز البعض أحياناً ذلك الحد إلى التدخل في خيارات الأبناء في كل مراحل حياتهم، حتى في مراحل النضج، حين يكون الابن قادراً ومؤهلاً لاتخاذ القرار الذي يناسبه ويتوافق مع ميوله، ويتم كل ذلك تحت مظلة دكتاتورية البرّ، ويصبح الرضا والغضب عصا مسلطة على رقاب الأبناء في الحق، وفي الباطل أحياناً.

ولقد كرست الأمثال الشعبية هذا الأمر فقد قيل:

"**أهلك تهلك**" أي التزم بأهلك أو يصيبك الهلاك.

الصداقة

إذا عرَّجنا إلى علاقة الصداقة بين شخصين، نجد أن الحال لايختلف كثيراً عن سابقه. فيرى البعض أن الصداقة هي الدعم المعنوي والمادي المطلقين دون حدود، وإلا فإن ذلك الشخص ليس بالصديق الحق.

فإذا أردنا تأطير هذه العلاقة بأطر الحقوق والواجبات، فأول ما يجب ذكره هو أن هذه العلاقة لها طرفان، ومن ثمَّ هي أخذ وعطاء وليست أخذاً فقط،

فكما أن الصديق يطالب صديقه بأن يرتقي إلى هذا المستوى من العطاء فهو مطالب أيضاً بالمثل. فإن كان قد أدى ما عليه يمكنه عندها أن يطالب بما له في إطار هذه العلاقة.

وفي المثل الشعبي ما يعكس هذا الحال الإيجابي:

"**إذا كان صاحبك عسل لا تلحسو كلو**".

لكنها بالمقابل حملت الكثير من الأمثال التي تكرس واقع الاستفادة المطلقة من هذه العلاقة باتجاه واحد، وساهمت من دون شك في بناء وعي يعلو فيه صوت الأنا لدى بعض أبناء المجتمع:

قيل: "**رب أسألك نفسي**".

وقيل أيضاً: "**يلي بصحلُّو من الضرف بيغرف غرف**" (الضرف هو المحفظة الجلدية التي يخضُّ بها الحليب لتستخرج منه الزبدة أو السمنة).

وغيرها من الأمثال.

علاقة الجوار

لقد حظيت علاقة الجوار من الأمثال بنصيب ثرّ من الدعم والإيجابية والمراعاة؛

فقد قيل:

"**الجار ولو جار**" أي لو جار عليك جارك فسيبقى جارك.

وقيل: "**الجار قبل الدار**".

وقيل: "**مين أعلم بحالك؟ قال: ربك وجارك**".

وقيل: "**جارك القريب ولا أخوك البعيد**".

وقيل: "**إذا جاري بخير أنا بخير**".

obeikandl.com

يقول المثقب العبدي:

أكـرم الـجـار وراع حـقـه إن عـرفـان الـفـتى الحق كـرم

لكن بالمقابل لا يخلو الأمر من بعض الحالات السلبية التي عبر عنها المثل الشعبي حين قال: "**كوم حجار ولا هالجار**"، أو قيل: "**يا جاري إنت بحالك وأنا بحالي**".

وقيل: "**إذا حجّ جارك بيع دارك**" (لأن الحجّ يعني ورود الكثير من الزوار للتهنئة).

فقد نجد في بعض الحالات أن الجار يعطي لنفسه الحق في زيارة جاره في أي وقت، أو في الاطلاع على خفايا حياته بحكم قربه منه، أو في التطفل عليه دون حدود واضحة لتلك العلاقة، ودون الأخذ بعين الاعتبار أن للمنازل حرمات وعورات، فالنوم والطعام والملبس والمشرب هي عورات لا يحب البعض أن تكون مكشوفة للغير. فذلك الجار الذي يقتحم على جاره في وقت نومه فإنه يتجاوز حدود العلاقة، وذاك الذي يفرض نفسه في وقت طعام جاره هو يتجاوز حدود العلاقة.

قيل في الشعر:

يلومونني إن بعت بالرخص منزلي ولم يعلموا جاراً هناك ينغِّص
فقلت لهم كفوا الملام فإنما بجيرانها تغلو الديار وترخص

علاقات الزواج

نأتي إلى أكثر العلاقات حساسية في مجتمعاتنا، التي هي مصدر معظم المشكلات؛ وهي علاقات الزواج وما يدور في فلكها من علاقة الكنة بالحماة، والصهر بأهل الزوجة، والسلفة بالسلفة، والضرة بالضرة، وغيرها.

وتبدأ هذه القصة الأبدية برغبة أي شاب بالزواج، وتنطلق عندها رحلة الألف ميل في البحث عن الزوجة المناسبة ثم بتكوين أسرة.

والخطوة الأولى في هذه الرحلة هي البحث عن طريق الخطّابة أو السؤال المباشر للأهل والأصدقاء عن الفتاة المناسبة، وبالمقابل وفي أطر الزواج التقليدي فإن الفتاة في بيت أهلها تنتظر بدورها الشاب الذي يوافق عليه أهلها. ولقد وصفت الأمثال الشعبية هذه المرحلة بسخاء؛ في تحديد الأسس التي يقبل تبعاً لها الشاب الفتاة أو أهل الفتاة الشاب.

فقد قيل: "**خود الأصيل ولو على الحصير**".

تأكيداً على أن الأخلاق تسبق المال والغنى.

وقيل أيضاً: "**إذا غاب عنك أصلو دلايلك فعلو**".

وفي التأكيد على أخلاق الشاب قيل: "**لا بيتسرّى ولا بنام برَّا**"، أو: "**مالو سوسة**"، أي إنه لا يدخن أو لا يشرب الخمر، أو قيل: "**إلو تم ياكل ما لو تم يحكي**".

أما فيما يتعلق بالفتاة فالقضية شائكة اجتماعياً، فوالدة الشاب هي الفاحص والحكم والقاضي في تقرير كونها مناسبة أم لا، وللنساء أساليب كثيرة في فعل ذلك.

ولقد عكست الأمثال بشكل صارخ هذا الأمر:

فقد قيل - إذا أريد انتقاد الفتاة وجمالها -: "**لبّس المكنسة بتطلع ستّ النسا**"، أو: "**لولا علبة مكّي كانت الأحوال بتبكّي**" (المقصود بعلبة مكّي هو مساحيق زينة الوجه). وفي حال كانت العروس جميلة قيل: "**الحلو حلو ولو فاق من النوم والبشع بشع لو تغندر كل يوم**" (تغندرت أي وضعت مساحيق الزينة على وجهها).

وحددت الأمثال في بعض الحالات صفات الفتاة التي يجب البحث عنها، فقد قيل مثلاً: "**دور الدورة ولو دارت، قطّع نفسك لو غارت، لا تغرّك الطويلة خود الأصيلة ولو بارت**" (بارت أي فاتها قطار الزواج).

obeikandl.com

وفي مثل آخر معاكس تماماً قيل: "**الطول تلتين الجمال**".

فإن لم تعجب زينة الفتاة أهل الشاب وصفت زينة وجهها بمثل: "**متل القطة يلي آكلة ولادها**"، وإن كان وجهها نحيلاً قيل: "**حناكها مفخَّتة**"، وإن كان مليئاً قيل: "**كراسي خدودها عالية**"، فإن اضطربت وخجلت وهي تقدم القهوة، بدأت الصفات السلبية تطلق عليها، فيقال مثلاً: **طشمة- فايتة ببعضها- بغو- مطرمخة- نعيانة** .

أو إن كانت صامتة قيل: "**ياما تحت السواهي دواهي**"، أو: "**ميّ من تحت تبن**".

وفي هذه المرحلة من الزواج التقليدي تكثر الأمثال في وصف المرحلة أو في وصف الزوجين. فمثلاً نرى أن التباين الاجتماعي بين العائلات له دور في الاختيار، وقد عكسته الأمثال الشعبية فقيل مثلاً:

"**يلّي متلنا تعو لعنا**" (تعو أي تعالوا، ولعنا يعني لعندنا).

أو: "**دن دن يا دنو كل مين ياخد من دنو**".

أو قيل: " **يلي ما بياخد من ملتو بموت بعلتو**" (ملتو أي ملَّته، وعلتو أي علَّته).

وقيل في موضوع الموازنة بين المال والأخلاق أو الجمال: "**يا آخد القرد على مالو، المال بروح وبيبقى القرد بوشّك على حالو**". وإن لم يعجب الشاب أهل الفتاة فهم يختلقون الأعذار للرفض، أو يلجؤون إلى أمور وصفها المثل الشعبي بدقة حين قال:

"**إذا ما بدك تجوّز بنتك غلّي مهرها**".

ومع الوقت استخدم هذا المثل في أمور أخرى غير الزواج لوصف الرفض غير المباشر لشيء ما.

وهنا كان للبنت دور مهم في النسيج الاجتماعي فقيل:

obeikandl.com

"**البنت سقَّاطة الباب**" (السقَّاطة هي القطعة المعدنية على باب المنزل والتي يدق بها الباب دون استعمال الجرس).

أي سيكثر من يدق على بابك إذا كان لديك ابنة بهدف خطبتها. وقيل:

"**همّ البنات للممات**". وفي السياق ذاته قيل:

"**البنت يا بتجيب العار يا بتجيب عدو الدار**". وقيل: "**البنت من بيت جوزها لقبرها**".

وهذا النوع من الأمثال يعكس في مرحلة من مراحل البيئة الشامية هيمنة المجتمع الذكوري، ويظهر التغييب شبه الكلي للدور النسائي في المجتمع، مع وجود بعض الاستثناءات هنا وهناك، ويبين بشكل واضح عودة جاهلية الوأد لكن بأسلوب أكثر إنسانية، وهو يعكس قهر الرجل خارج منزله، يقول د. حجازي:

"يتناسب القهر الذي يفرض على المرأة مع درجة القهر الذي يخضع له الرجل في المجتمع.... كلما كان الرجل أكثر غبناً في مكانته الاجتماعية، مارس قهراً أكبر على المرأة"[1].

وتنتقل مراحل الزواج إلى مرحلة اختيار الفتاة، وحين يكون هناك عدة فتيات على المحك تتم الموازنة بينهن، فيقال مثلاً:

"**قفا إيدها مراية إلها**"؛ أي أجمل منها. أو يقال عن مزايا الفتاة عند المحك:

"**عند الجرن بتبيّن القرعة من أمّ الشعر**" (المقصود بالجرن هنا جرن حمّام السوق).

وتزخر الأمثال بوصف الشاب المقبل على الزواج؛ فإن كان داكن اللون

(١) التخلف الاجتماعي، ص ٢٠٢.

وصف بأنه "**متل البرغوت باللبنية**"، (اللبنية هي أكلة شامية قوامها اللبن المطبوخ مع الكبّة)، وإن كان معتداً بنفسه كان يوصف بـ "**بالع بصتون**" (البصتون هي العصا التي يحملها الكبار بالسن لتعينهم على المشي)، أو: "**منشَّا**" (كان يستخدم النشاء لجعل القمصان البيضاء قاسية)، أما الشاب المقبل على الزواج وهو قليل المال فيقال عنه: "**دبساتو مراق**" (دبساتو أي الدبس وهي أكلة حلوة، ومراق: أي ليست ثخينة كفاية، فالدبس قوامه كالعسل).

وفي وصفه بشكل عام قيل: "**ياحواجبو ياعيونو قال:كلو على المغتسل باين**".

أي قد يكون صبغ شعره ولونه غير طبيعي، وقس على ذلك، ولكن كل ما هو صناعي سيظهر على المغتسل، أي عندما يموت.

فإن حصل توافق بين الزوجين وكانا مناسبين أحدهما للآخر وصفا بالمثل: "**قدرة ولقت غطاها**". أما إن لم يحصل توافق فينفصل الطرفان ويقال: "**ألف قلبة ولا غلبة**".

وفي حال كان نصيب الشاب فتاة ليست على قدر كبير من الجمال قيل:

"**صام صام وفطر على بصلة**"، أو يقال:

"**كل فولة مسوسة إلها كيال أعمى**".

وقيل: "**عريس خيطان على عيون الجيران**" في وصف أهل الفتاة الذين يتفاخرون بمجيء عريس إلى ابنتهم بين الجيران.

وفي حال تقدم أكثر من شاب إلى فتاة واحدة قيل:

"**عروس بتنجلي ما بتعرف على مين بتختلي**".

وعندما تتم الموافقة على الزواج، فإننا ننتقل هنا إلى مرحلة جديدة من العلاقات المتداخلة العائمة الحدود، وتدخل هنا الأمثال الشعبية في نوع آخر من التناول الذي يطال الزواج والحياة الزوجية والزوجة والزوج.

obeikandl.com

فإن كان الشاب سيئ الخلق والمعاملة قيل: "**قصر كبير وحيطانو حمر وجواتو شي بيقصف العمر**".

أو: "**برات البيت شحرور وجواتو دبور**" وصفاً للزوج السيئ.

أما الكنة التي كانت في الماضي تعيش في حجر الحماة، فقيل عنها مثلاً:

"**الصبية إن قالت جوعانة صدقها وإن قالت تعبانة لا تصدقها**"، وقيل: "**الصبية بفتلتها وقلّة لقمتها**" (بفتلتها أي كثرة حركتها وعملها المستمر).

وإذ يؤكد مجتمعنا على فوقية الرجل وحتمية الحرص على رضاه، فإن المرأة لم تعط ذلك الحق ولا جزءاً منه حين قيل مثلاً:

"**المرا مالها رضا بطج بالأرض وبيرجع على الفضا**".

أما إن كان زواجاً ناجحاً فيقال عن الزوجين: "**متل السمنة على العسل**"، وهنا يصبح الرجل بالنسبة إلى المرأة كما قيل في المثل: "**الرجال مراية القلب**"، وقيل: "**الرجّال لو فحمة بالبيت رحمة**".

وتدخل بعدئذ العلاقة الزوجية في عمق التوتر بين الكنة والحماة، والأمثال الشعبية تعكس ذلك الواقع فقد قيل:

"**إذا حبتني حماتي فرشتلي عالتنور، وإن كرهتني حطتني عالكانون، هون شحَّار وهون شحَّار**".

وفي شأن الزوجة قال المثل على لسان الحماة:

"**أحسن مو قاعدة ومادِّة رجليها تقوم تنظف من حواليها**"، أو إن كانت جاهلة بالطبخ قيل: "**ست وجاريتين على قلي بيضتين**"، أو إذا انتقدت الحماة الكنة بشكل غير مباشر قيل: "**الحكي إلك ياجارة والتسميع إلك ياكنة**"، وقيل: "**الكنة بدها كنة والمونة بدها ركونة**". أما بالنسبة إلى أهل الفتاة فقيل: "**الصهر مسند الظهر**".

ولم يخل لباس الزوجين من الوصف بالأمثال فقيل: "**الزهر بفكّ القهر**"، وقيل: "**إذا كان حبيبك تور لبسلو أحمر**".

فإن دخلت الغيرة بين الزوجين قيل:

"**يا مأمنة بالرجال متل الميِّة بالغربال**" (الميِّة أي الماء)، وإن كانت الزوجة تحب الخروج قيل: "**من بيت شقاع لبيت رقاع لبيت كتَّر الله فراحكن**". وإن لم تكن مجيدة للطبخ قيل: "**شو ما طبخت العمشا جوزها بيتعشى**".

فإن كانت الزوجة مطيعة لزوجها قيل: "**الفرس من الفارس**" وإن كانت جميلة وأريد انتقادها قيل: "**حطها على الرف ودقلّها بالدف**"، فإن مات عنها زوجها وصفت بأن "**كعبها مدوَّر**" أي من تتزوجه يموت.

وتتداخل العلاقات مع الأشخاص المحيطين بالزوجين؛ كأخت الزوج فقيل:

"**أخو مراتو وأنا بحلف بحياتو**" أي لم يعد الأخ كما كان قبل أن يتزوج، أو زوجة الأخ (السلفة) فقيل: "**بين السلفة والسلفة داءات مختلفة**"، وقيل أيضاً: "**مركب الضرايز سار ومركب السلايف غار**".

فإن كان هناك زواج ثانٍ وصفت الضرة في الأمثال الشعبية غالباً بصفات سلبية فقيل:

"**الضرَّة مرَّة**". أما أولاد الزوج فهم أدهى وأمرّ في تلك الأمثال، فقيل:

"**انزل على ضرة ولا تنزل على شروشها**" أي أولادها، أما الضرة التي لا تأتي بأولاد فوصفت بـ "**صفصاف شرشك على المي**" (شرشك أي جذرك) أي ليس لها جذر يثبتها في زيجتها.

كل ماسبق من أمثال هو غيض من فيض، ويعكس التداخل في العلاقات، وعدم وجود حدود واضحة يقف الجميع منها على مسافة واحدة، ونجد أن الحقوق والواجبات ضائعة تماماً في معظم الحالات، وهي إن دلت على شيء فهي تدل على حقيقة المجتمع في بنيته. ولا يخفى على أي مطلع بأن غياب

التعريف الواضح لأي علاقة ومعرفة الحقوق والواجبات فيها سيؤدي في مكان ما إلى انهدامها في أسوأ الأحوال، أو إلى غبن طرف على حساب طرف في أحسن الأحوال.

وبعد

قد يبدو للناظر أن المشكلة التي تواجهنا في مجتمعنا تنحصر في العلاقات الواجبة، لأن العلاقات الخيارية يبقى فيها عامل الاختيار أساسياً؛ إذ يمكن استبدال الصديق أو تغيير المسكن واستبدال الجار، أما في العلاقات الواجبة فلا يمكننا استبدال الأم أو الأب أو الأخ أو العم، لكن في الحقيقة المشكلة أعمق من ذلك، وهي تكمن في تمييع حدود تلك العلاقات سواء الخيارية أو الواجبة. لذلك نجد أنه من الضروري أن ينتشر في المجتمع وعي شامل فيما يتعلق بالحقوق والواجبات الناظمة لتلك العلاقات، ويستأصل ما هو سلبي في تراثنا والذي يوطد ويعمق تمييعها، وأن يكون الجميع على اطلاع على الحدود، مع إمكانية التمييز بين المناطق المحظورة والمساحات المسموحة.

هذا النوع من الوعي يمنع فساد العلاقات ويحول دون انهيارها. فالأب الذي يعرف تماماً حدود بر ابنه به سيحترم خياراته عندما يصبح في سن يستطيع فيها التفريق بين الخطأ والصواب وعنده القدرة على الاختيار. وستحترم الأم خيار ابنها في المرأة التي ستشاركه حياته، وسيحترم الأخ حدود علاقته بأخته فلا يفسد عليها زواجها.

إن قدسية وحساسية هذه العلاقات قد يجعل تأطيرها من أصعب المهام، وقد يقابل ذلك بالرفض، لكن الأصعب هو أن ترى ابناً يعيش حياة رسمها له والداه بكل تفاصيلها وهي بعيدة كل البعد عما يريد، وأن ترى أخوة تنهار أمامك، وأن ترى أصدقاء يتحولون إلى أعداء، وأن ترى جارين يتنكر أحدهما للآخر، وقد كان من الممكن تدارك كل ذلك بالوقاية من الوقوع في المحظور.